تكوّن الدولة العثمانية*
(جمال كفادار)

ترجمة عبد اللطيف الحارس

في مرتفعات بيثينيا حيث اعتادت قبيلة عثمان على التجوال، «جاء اليوم» الذي رأى فيه عثمان أن بإمكانه قيادة شعبه وبناء قوة سياسية تحت زعامته. وتحديد «اليوم» المناسب، لفرض إرادته على قبيلته وتوضيح معالم توجهاتها السياسية، دلّ على مقدرة فائقة في معرفة اللحظة المناسبة والاستفادة منها. وللحصول على شرعية لنجاحه و«لخروجه» على العادات والتقاليد المتبعة، كان لا بد من تدخُّلٍ إلهي.

ما أن بدأت قبيلة عثمان الصغيرة بتنفيذ مسعاها السياسي حتى دخلت في منافسة مع خصومها الأتراك ـ المسلمين والمسيحيين في المنطقة؛ إلا أنها تمكنت في النهاية من تحقيق سيطرتها. لم يتوقع أحد أن تكون النتيجة قيام قوة واحدة منتصرة هي البيت العثماني. وحتى لو توقع البعض في نهاية القرن الثالث عشر، وهذا مشكوك فيه، بأن القوات الإسلامية ـ التركية ستتمكن من ابتلاع الامبراطورية البيزنطية، فلم يكن هناك أي سبب لافتراض أنها ستقع جميعها في يد سلالة واحدة! وحتى لو توقعنا هذا، فلم يكن هناك من سبب لافتراض أن هذا سيتحقق على أيدي العثمانيين. كيف تمكنوا من تسخير دينامية التخوم وروحية الغزو، والتراث الثقافي التعددي للمنطقة بشكل ناجح أكثر من خصومهم؟ أو بالأحرى، ما هي العوامل التي جعلت العثمانيين في

(*) Cemal Kafadar, Between Two Worlds. The Contruction of the Ottoman State. 1995. PP. 118-150.

النهاية يبزون جميع الدويلات الأخرى وحتى الدولة السلجوقية؟

مما لا شك فيه أن روحية الغزو «gazi ethos» قد لعبت دوراً، إلا أن العثمانيين لم يكونوا الشعب الوحيد الذي ادّعى أنه يجاهد في سبيل الله وكذلك الحال بالنسبة للقبلية أو أي مفهوم أو مبدأ أو أيديولوجية أو عقيدة أو عرق أو قانون بإمكاننا أن نتوقع منطقياً أن يكون ميزة عثمانية.

إن البحث عن «أسباب النجاح العثماني» لا يمكن أن يكون أحادي الجانب لكل الفترة التاريخية موضوع الدراسة؛ فالالتزام الأيديولوجي بالغزو والذي يكاد يكون القاسم المشترك لكل الفترات، كان يتغير باستمرار وكذلك كانت خصائصه ودرجة كثافته. فعلى الرغم من الوجود الدائم لمحاربين ملتزمين بعقيدة البطولة والشرف والجهاد في سبيل الإسلام، فإن علاقاتهم بالإمارة من جهة، وبالبيت العثماني من جهة أخرى كانت تتغير باستمرار، وكذلك كانت حال القوى الاجتماعية الأخرى كالدراويش مثلاً. إن الوضع السياسي والاجتماعي برمته كان في حالة تغير دائم، بينما كانت السلطة تتركز تدريجياً في أيدي إدارة تخدم سلالةً معينة. ويركز الباحث على المحركات العامة لهذا التغير ومراحله المهمة في محاولة لفهم الدولة العثمانية كنسق بدلاً من فهمها كعلاقة ميكانيكية بين سبب معين ونتيجة.

وقد ركز الباحثون بشكل عام على عدة عوامل ساهمت في قيام الدولة العثمانية: منها أولاً، موقع ولاية عثمان، الذي شكل ميزة فريدة، إلا أن هذا لم يكن مسألة اعتباطية متروكة للظروف، لأن العثمانيين قد عملوا على تسخير هذه الظروف بطرق معينة ساعدتهم على تحقيق قدرهم. وثانياً، سياسة المحافظة على وحدة الإمارة العثمانية وخاصة عند انتقال السلطة، تحت زعامة وريث واحد. وشكلت هذه السياسة فرقاً واضحاً عن الإمارات الأخرى التي سمحت بالتجزئة، وذلك باعترافها بحقوق الورثة جميعاً تبعاً للتقاليد المغولية ـ التركية. وثالثاً، اتباع العثمانيين منطق المركزية. ورابعاً، الطريقة التي اتبعها بناة الدولة في تغييرهم الناجح لشبكة تحالفاتهم مع القوى السياسية والاجتماعية الأخرى، وفي مقارنة مع الإمارات المغولية ـ التركية والتركية ـ

الإسلامية في المنطقة نرى بأن هؤلاء لم يتمكنوا من حل إشكالات الصراع والوحدة بشكل ناجح كما فعل العثمانيون. صحيح أن كل الإمارات كانت وارثةً للثقافة السياسية لسلاجقة الأناضول، وهذا ما اعتبره كوبرولو في غاية الأهمية في بناء الدولة العثمانية، إلا أن العثمانيين كانوا أكثر خبرةً في إعادة تشكيل هذه الثقافة لتتوافق مع حاجاتهم، فكانوا أكثر إبداعاً في عمليات الدمج غير المتوقعة للتقاليد المختلفة، التركية والإسلامية والبيزنطية.

ويحاول الكاتب في هذا الفصل إعادة رسم الخطوات الأساسية التي اتبعها العثمانيون في طريقهم نحو بناء دولتهم، ويجعل هدفه تتبع الدفع المركزي العثماني، الذي رافق التوسع ولكنه كان على حساب القوى الأخرى التي كانت تنضوي في النسق التوسعي نفسه؛ عارضاً من خلال ذلك لطرق العثمانيين في اختيارهم واستخدامهم لاستراتيجياتٍ تتعلق بإقامة أو حل شبكات تحالفاتهم لتعزيز أو توسيع سلطاتهم، الأمر الذي كان يتسبب في إنتاج قلاقل واضطرابات مستمرة. ولكن العثمانيين نجحوا في تخطي هذه القلاقل والاضطرابات، كما نجحوا في تطبيق رؤيتهم للسلطة المركزية في النهاية.

استراتيجيات التحالف والصراع: الإمارة الأولى

تعتبر التقاليد التاريخية العثمانية أن القبيلة التي مثلت قاعدة قوة عثمان قدمت إلى آسيا الصغرى في عهد جده وترافق ذلك مع بداية الفتوحات «الجانكيزخانية» في أواسط آسيا. وعلى الرغم من أن هذه القصة مقبولة تاريخياً، إلا أن تفاصيلها، وما يتعلق منها بهوية الجد أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة. والأهم من ذلك، أنه ليس واضحاً متى وكيف انتهى العثمانيون في بيثينيا، على نهاية حافة الأناضول التركي ـ الإسلامي. أما كونهم ينتمون إلى بطن القايي من قبيلة الأوغوز فيبدو أنها إعادة اكتشاف مبدعة من قبل ملفقي الأنساب في القرن الخامس عشر. فهي غير مذكورة لا في التاريخ الأحمدي، ولا في تاريخ يخشي فقيه الذي يعطي روايته الخاصة والمفصلة عن شجرة العائلة العثمانية عائداً بها إلى نوح. فإذا كان هناك ارتباط فعلي بقبيلة القايي فمن الصعب أن نتصور أن يخشي ـ فقيه لم يسمع به. أما

يازجي زاده فهو أول مصدر مكتوب يربط العثمانيين بقبيلة القايي وذلك سنة 1430، إلا أنه يضيف بأن عادات الأوغوز ومن ضمنها افتراضاً، «الارتباط الحقيقي» لقبيلة أرطغرل، كانت قد نسيت كلياً في أيامه. أما شكر الله والذي كتب تأريخه لاحقاً، فيخبرنا بأنه قد قام بزيارة إلى بلاط القره قويونلو سنة 1449، ليتعرف على فروع العائلة العثمانية من الأوغوز والقايي. ويؤكد شكر الله أنه اهتدى لهذه الحقيقة وأعطى دليلاً على ذلك قرابة النسب بين العثمانيين والقره قويونلو وتحالف الاثنين ضد الأق قويونلو. وعلى الرغم من رأي كوبرولو بأن الارتباط بالقايي لم يكن بالشيء المميز ولذا فإنه لا يستحق التزوير، فإن المكاسب السياسية من وراء هذا الادعاء كانت واضحة.

وتختلف المصادر التاريخية العثمانية في تحديدها لدور الشخصيات العثمانية التاريخية. فبينما تنسب بعض التواريخ إلى أرطغرل قيامه ببعض الغزوات وتحقيق بعض الانتصارات العسكرية، يرى آخرون بأن هذا الجيل لم يكن ناشطاً عسكرياً ولا سياسياً، على الأقل بعد قدومهم إلى بيثينيا. ويروي أبز أنه في زمن أرطغرل وبعد انتقال القبيلة إلى بيثينيا «لم يكن هناك أي قتال أو معارك عسكرية، لقد كانوا ينتقلون فقط بين مراعي الصيف والشتاء». ويبدو واضحاً من كل هذا بأنّ سعي العثمانيين للتنافس السياسي لم يبدأ إلا مع عثمان. فالظروف التي دفعت القبيلة إلى المشاركة الفعالة في الحياة السياسية للتخوم، وبالتالي إلى السجلات التاريخية، قامت حوالي سنة 1290 كما اقترح توغان. فالأكيد إذاً أن القبيلة تمتعت بإرتقاء مهم في مستوى نجاحاتها العسكرية وادعاءاتها السياسية المبينة تحت قيادة عثمان؛ ولذا كان اسم عثمان وليس أي اسم آخر من أسلافه، هو المعرّف للإمارة، ولا نعلم بأي اسم عرفت قبيلته قَبل قدومه. ولكن كعثمانيين (اتباع عثمان) فإن القبيلة والإمارة نعتتا بهذا الاسم لمدة طويلة.

لقد عرف أرطغرل وجيله مفهوم الغزو. والخصم الأساسي لأرطغرل كان بيت جرميان، واستمرت هذه الخصومة حتى أوائل عهد عثمان. أن تكون غازياً لا يعني بالضرورة أن تكون محارباً بغير تمييز ضد المشركين، كما أنها

قد تعني أيضاً حرباً ضد أشخاص يؤمنون بنفس المعتقد. لقد أُعطي أرطغرل أرضاً رعوية حول سغوت، وكانت الأراضي المجاورة التي أصبحت تشكل أرض جرميان ما تزال دار حرب. ويبدو أن قبيلة أرطغرل قد كرهت قدوم قبيلة جرميان الأكثر قوة، لأنها هددت حرية تحركها. وقد لعبت قبيلة «جرميان» دور الوصي «الأخ الأكبر» على القبائل الأخرى، على الأقل حتى أوائل القرن الرابع عشر. وبدأ الصراع بين قبيلة عثمان والبيت الجرمياني بسببٍ من أن الأخير وقف مع السلاجقة في قمع الثورة التي قامت خلال السنوات 1239 ـ 1241 بقيادة الدراويش البابائية، والذين هرب الكثيرون منهم كزعيمهم أده بالي «Ede Bali» إلى بيثينيا وأقاموا علاقات ودية مع العثمانيين.

وإذا كان الغموض لا يزال يحيط بالسنوات الأولى من حكم عثمان، فهذا الغموض يطال أيضاً هويته الذاتية. أقدم المصادر تقرأ البيزنطية تقرأ اسم عثمان كالتالي: أتومان أو أتمان واستنتج بعض البحاثة من ذلك أن مؤسس الإمارة العثمانية كان له اسم تركي في البدء، على الأرجح أتمان، ثم تغير لاحقاً إلى عثمان. والغريب أن مصدراً من أقدم المصادر العربية التي ذكرت اسم عثمان، المؤرخ والجغرافي العمري سنة 1330، يهجيء الاسم بالطاء أيضاً في مكانين ثم يذكره بشكل صحيح لاحقاً. وهناك صدى لهذا «الاسم الآخر» في مصدر تركي متأخر، سيرة حياة الحاج بكتاش المكتوبة في القرن الخامس عشر.

ولا نحتاج هنا إلى إعادة إحياء نظرية غيبون التي تقول بتحوّل عثمان من الوثنية إلى الإسلام لتفسير تغيّر اسم عثمان وجعل هذا التغير ممكناً تاريخياً. فالأسماء التركية، كانت وما تزال، تعطى للأطفال الذين يولدون كمسلمين. وهذا السلوك على الرغم من اختفائه، إلا أنه بقي سائداً إلى درجة معينة ضمن عائلة عثمان؛ فاسم أرطغرل أعطي لابن بايزيد الأول البكر سنة 1376، واسم أوغوز لأحد أبناء الأمير جم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. فمن يولد باسم تركي لا يعني بالضرورة أنه غير مسلم. إلا أنه إذا كان الاسم الفعلي لعثمان هو أتمان ثم تبنى اسماً عربياً أكثر هيبةً ومقاماً لاحقاً، فهذا

يمكن أن يدلّ على نقطة انعطاف هامة في الهوية الذاتية أو الأيديولوجية السياسية للعثمانيين الأوائل.

أما طبيعة مفهوم التخوم في غرب الأناضول في ذلك الوقت، فقد تميزت بوجود وحدات صغيرة مستقلة مكونة من مجموعات قروية، ومدن صغيرة وقبائل رعوية ودراويش ومجموعات دينية كهنوتية ولكلٍ منها مساحة أرض معينة. وكل القرارات والتحضيرات المتعلقة بالحرب والسلام، التحالف والصراع، كانت تؤخذ محلياً من قبل قادة هذه المجموعات. وحتى الحصار الطويل لبورسة «Bursa» إحدى أهم مدن بيثينيا، فقد عانى أهلها منه فقط بينما لم تتدخل الحكومة الامبراطورية في القسطنطينية بشكل فعّال. إلا أن المنطقة لم تكن خالية من أي تدخل من قبل السلطات الكبرى في المراكز السياسية. ففي بعض الحالات كانت هذه القوى تستخدم قواتها في المنطقة، إلا أن الأهم من ذلك أنه قد كانت لهذه القوى سلطة إعطاء الشرعية للقوى المحلية، وقد كانت هذه الشرعية جزءًا من اللغة السياسية لمجتمع التخوم. ولذا كان علينا أن لا نبالغ في مسألة استقلالية القوى الصغيرة في التخوم، فالبيزنطيون والمغول وحتى السلاجقة كانت لهم بعض السلطة على مجتمع التخوم. أما بالنسبة للجانب الإسلامي ـ التركي في غرب الأناضول في العقد الأخير من القرن الثالث عشر فقد كانت هناك طبقات سلطوية متعددة:

1 ـ خانات المغول وحكامهم.

2 ـ سلطنة السلاجقة.

3 ـ سلطنة المماليك.

4 ـ أمراء سلاجقة لهم وجود مادي عسكري في التخوم ويسعون إلى السلطة.

5 ـ أمراء الأوك وهم معينون ومعترف بهم من المغول أو السلاجقة.

6 ـ بكوات أو أمراء القبائل.

7 ـ وجهاء دينيون وأتباعهم.

8 ـ المغامرون والطامحون وبعضهم توصل إلى أن يكون أميراً.

وانطلاقاً من هذه الأرضية المعقدة والمتغيرة لمناطق التخوم، كان من الصعب الحديث عن «الجانب الإسلامي ـ التركي» ككيان ذاتي مغلق، أو «كمجموعة قومية». حتى الامبراطور البيزنطي كان له نفوذ مباشر بين المسلمين والمسيحيين خصوصاً وأنه كان هناك أمراء محليون مسيحيون إضافةً إلى مجموعات كهنوتية. ولم تكن القوى الكبرى حاضرة دائماً وبنفس القوة وفي نفس الوقت وذلك بسبب قدراتهم ومصالحهم المتغيرة. والعلاقات بين هذه الطبقات استمرت في التغير كلما تضاربت الادعاءات والطموحات أو تقاربت، مما يعيد ترتيب هذه القوى المختلفة في معسكرات متحالفة أو متخاصمة.

وأظهر عثمان براعة سياسية في هذه البيئة حيث التحالفات تتجاوز الخطوط القبلية والإثنية والدينية. يتحدث أبز عن علاقات عثمان الودية مع قادة المدن والقرى المسيحية وليس هناك من سبب يدعونا إلى افتراض أن هذه القصص كانت من تلفيقات القرن الخامس عشر. ويروى أن عثمان عندما سمع اقتراحات أخيه بحرق وتدمير المنطقة المحيطة بهم، أجابه: «إذا دمّرنا هذه المناطق، فإن مدينتنا في ـ كرك حصار ـ لا يمكن أن تزدهر، وما يجب أن نفعله هو المحافظة على صداقة مزعومة مع جيراننا». كما أن قبيلة عثمان في ترحالها نحو مراعي الصيف، كانت تترك حاجياتها عند قلعة بيلجيك البيزنطية وعند عودتهم كانوا يُهدون مسؤولي الروم، عربون تقدير لخدماته، «الجبن وزبدة الحليب المحفوظة في جلود الحيوانات والسجاد الجيد». وطبيعة هذه الهدايا يمكن أن توضح طبيعة علاقات التعايش التي يمكن أن تنشأ بين الرعويين والمزارعين أو ساكني المدن بسبب الأنواع المختلفة المنتجة من قبل كل واحد منهم. والتبادل التجاري كان الوجه الآخر لهذا التعايش. وعند سيطرة عثمان على أول مركز مدني، أقام (سوق المدينة) وكان يقصده المشركون من المناطق المجاورة كما المسلمون من الإمارات العثمانية والجرمانية.

إن مفهوم الغزو يرتبط بمبدأ الشرف، الصداقات القديمة والخدمات والوعود والارتباطات كان لها وزن معين وتأثير على روحية الغزو. ومن الممكن نقض تحالف أو ارتباط إلا أن هذا النقض يحتاج إلى معنى من ضمن هذا المفهوم. ويتحدث أنصار عثمان عن مهاجمة الأخير لتكفور بيلجيك وهو حليفه السابق، كشيء ما كان من الممكن أن يحدث لو لم يسمع عثمان بأن القائد البيزنطي كان على أهبة الغدر به. ومن جهة أخرى فإن بعضاً من هذه الصداقات استمرت. وقد احترم الأتراك الكسيوس فيلنتروبينوس Alexios Philanthropenos إلى درجة أنهم كانوا مستعدين للتخلي عن حصار فيلادلفيا سنة 1323، «متذكرين لطافته وبسالته». إن أفضل محاربي التخوم هم أولئك الذين يستطيعون المحافظة على قضيتهم بشجاعة وإصرار، ويظهرون تعاطفاً وشهامة نحو العدو. وصلاح الدين الأيوبي هو مثال محاربي القرون الوسطى الذين جمعوا وبأناقة بين هاتين الخاصتين المتناقضتين ظاهرياً.

علاقة عثمان مع خصومه: المسيحيين والمسلمين

وتأتي علاقات عثمان مع ميهل «Mihal» أحد جيرانه، ورئيس قرية هرمنكايا «Harmankaya» لتقف دليلاً على تعاون عثمان مع جيرانه البيزنطيين. وعلى الرغم من أن ميهال قد تحول لاحقاً إلى الإسلام، إلا أن بعض الغزاة قد كرهوا وجود مشرك بينهم يساهم في عمليات الغزو ويتمتع بفوائدها. وقد كان لميهال وعائلته مرتبة هامة بين الغزاة وفي خدمة الدولة العثمانية. وقد أوضح البعض أن علاقة عثمان مع ميهال توضح «الطريقة العثمانية في الفتح»، وذلك بانتقال ميهال من مشارك إلى خاضع إلى مندمج في بناء هرميّ جديد.

أما عن علاقات عثمان مع خصومه من «الجماعات الإثنية» الأخرى؛ فنذكر منها علاقته مع التتار، المختلفين بشكلٍ واضح عن تركمان الأوكات. ويبدو أن هؤلاء كانوا من الأتراك غير الأوغوز والمغول المرتبطين بإمارات الجانكيزخانيين. وقد انتقل معظمهم إلى التخوم في غرب الأناضول، وكانوا بمعظمهم وثنيين. وقد اصطدم أرطغرل وعثمان مع جفدار Gavdar التتار في

أرض الجرميان، إضافة إلى تنافسهم مع البيت الجرمياني نفسه. وهذا الصراع العثماني مع التتار والجرمانيين كان أشد في أوائل الدولة العثمانية، منه مع المسيحيين المحليين. وعند مجيء تيمور إلى المنطقة في أوائل القرن الخامس عشر، انحاز التتار إلى جانب هذا الفاتح الذي أرسل إليهم رسائل لضرب ولائهم لبايزيد، ومما جاء في رسائله: «لنا نفس الأسلاف. . . فأنتم جزء من شعبي. . . فلماذا يجب أن تكونوا عبيداً لرجل هو ابن عبيد جعلهم آل سلجوق أحراراً». وقد عبر بايزيد عن استيائه من التتار بقوله: «التتار. . . مادة للشر والجريمة. . . وهم أكثر ضرراً للمسلمين ولبلادهم من المسيحيين أنفسهم. . .».

المصاهرة والاستراتيجية السياسية

ولقد تصرف عثمان ببعد نظر واستراتيجية طويلة المدى. وربما اتبع في ذلك غريزته ومتطلبات خطته. إلا أنه لم يخطىء في فهمه للنتائج المستقبلية للعلاقات العائلية التي أقامها لنفسه ولابنه. فإحدى زيجاته كانت لابنة شيخ هو رأس مجموعة مزدهرة من الدراويش والرعاة في التخوم. إن قصة زواج عثمان من ابنة الشيخ أده بالي «Ede Bali» الذي يظهر في نهاية قصة الحلم كانت بالحقيقة مثار شكوك كثيرة، ربما لارتباطها بقصة الحلم التي لا شك أنها مختلقة. إلا أن بعض المصادر المتأخرة تطلق على أده بالي: عم عثمان «والد زوجته». إن وجود الشيخ أده بالي في غرب آسيا الصغرى في النصف الأول من القرن الرابع عشر لا يمكن الشك فيه؛ لأنه ذُكر في كتاب سير ألفان شلبي المكتوب في السنوات 1358 ـ 1359، ولأن علاقة هذا الشيخ بالبابائية تتناسب تماماً مع معلوماتٍ، في مصادر أخرى، تتعلق بوجود ممثلين لهذه الجماعة حول العثمانيين الأوائل. أما من الناحية الجغرافية فإن بيثينيا تشكل موقعاً استراتيجياً لاستقرار الجماعة البابائية، الذين دفعوا بهذا الاتجاه من قبل القوات السلجوقية بعد المذبحة التي ترافقت مع إخماد ثورة البابائية في سنوات 1239 ـ 1241. وعلاقة المصاهرة بين العثمانيين والشيخ القائد لهذه الجماعة تفسر علاقات العداء التي قامت بين العثمانيين وبين بيت جرميان.

فهذا الأخير قد كوفىء من قبل السلاجقة بسبب خدماته لهم في إخضاع ثورة البابائية. ويذكر عبس أنه كان لأده بالي علاقات ودية، وبسبب المصاهرة أيضاً، مع عائلتين أخرتين مرموقتين: عائلة جاندرلي خليل وعائلة تاج الدين الكردي، وهما من عائلات العلماء المشهورين، ومن أول الواصلين من مناطق تمتاز بمؤسساتها العلمية العريقة. وقد دخلا في خدمة الدولة العثمانية. وزواج أورخان بن عثمان من ابنة تكفور يرحصار كان كذلك مرتبطاً باستراتيجية سياسية.

أما بالنسبة للاستراتيجية العسكرية للعثمانيين الأوائل، فإننا لا نعرف عنها شيئاً أكيداً. حتى معركة بافوس «Bapheus»، وهي أول حدث مؤرخ في تاريخ عثمان، حيث انتصر في مواجهة مع قوة بيزنطية سنة 1301 أو 1302. باخيميرس Pachymeres، المؤرخ الذي ذكر هذا الحدث، إضاف أن عثمان قد أغرى الكثير من الترك من منطقة ميندر Meander وبفلاغونيا «Paphlagonia»، بالانضمام إلى قواته. ولا يوجد سبب للافتراض أن هؤلاء المحاربين قد تحولوا إلى قوة إضافية دائمة للقوات العثمانية. فبعض هؤلاء الأمراء من الإمارات المجاورة كانت لهم هوياتهم وتطلعاتهم ومن الممكن أيضاً تنافسهم مع العثمانيين. بعض هؤلاء المتطوعين في بافوس، والذين كوفئوا بكرم، ربما بقوا وأصبحوا عثمنليين، بينما الآخرون وبسبب عدم تحقق توقعاتهم، ربما تركوا وانضموا إلى قائد آخر. لقد كان في مجتمع التخوم إذاً قسطٌ كبيرٌ من المشاركة بين المحاربين، أو انتزاعٌ لهم من قبل رؤساء القبائل. وحتى عام 1330 فإن قوات الإمارات تكونت وبدرجة كبيرة من «محاربين متأرجحين»، كانوا مستعدين لتلبية نداء الغزو من قبل زعماء مختلفين. إن استراتيجية عثمان وقدرته على اجتذاب متطوعين في فترات نشاط عمليات الغزو لا بد من أن تكون قد نمت، إلا أن العثمانيين ولفترة طويلة لم يكونوا أبرز الممثلين لنشاط التخوم؛ وهذا ما ساعد الإمارة العثمانية، كما يرى البعض، في بناء مؤسساتها وتقاليدها السياسية بشكل تدريجي وثابت أكثر من الآخرين. ولذلك لم يتأثروا بحملة الإيلخانيين «Ilkhanids» في السنوات 1310 ـ 1320، والذين جاؤوا إلى مناطق تخوم غرب الأناضول لإخضاع

الأمراء المتمتعين باستقلالية زائدة. حتى أن مؤرخي الإيلخانيين في تلك الفترة، الفارسي رشيد الدين، وأقحصاري Aksarayi، الذي ساهم شخصياً في هذه الحملة، لم يذكرا عثمان من بين من ذكرا من زعماء الحرب.

أهمية موقع الإمارة العثمانية

لقد كان لمركز قاعدة سلطة عثمان أثر كبير في تحقيق نجاحاته. فمدينة سجوت التي تقع على مرتفع يسهل الدفاع عنه، هي مدينة على الطريق الرئيسية التي تمتد من القسطنطينية إلى قونية وتحيط بها مرتفعات تشكل درعاً طبيعياً لها. وقد كان لهذا الموقع الصغير أهميته بسبب التجزئة السياسية للمنطقة، التي أعطت للوحدات الصغيرة أهمية أكثر من ذي قبل. إلا أن الميزة الأولى والأساسية كانت، كما عبر عن ذلك العديد من البحاثة، موقع القوات الموالية لعثمان الكائن في نهاية طرف التخوم. ولقد برز دور هذا الموقع العسكري الاستراتيجي، والسياسي الاجتماعي لجيران الداخل في ذات الوقت الذي وجه العثمانيون فيه انتباههم نحو مدن بيثينيا البيزنطية، بعيد انتهائهم من مواجهة الجرميانيين والقبائل التترية؛ وفي ظل عالم التنافس في التخوم، لا شيء ينجح مثل التحالفات. إن نجاح هذه المؤسسة الصغيرة التي يرأسها عثمان وأبناؤه في سلسلة من الغزوات والفتوحات لمدن صغيرة في بيثينيا، قد دفعت بالعديدين، ليس فقط من المحاربين، وإنما أيضاً من الدراويش والعلماء، للانضواء تحت قيادتهم.

ويذكر يخشي فقيه أن انتشار أي خبر عن إنجاز عثماني آخر، كان يدفع شعوباً جديدةً نحو السلطة العثمانية. وإن «عدالة وكرم» العثمانيين الأوائل، يذكر أبز، دفعت بالمزارعين الهاربين من المناطق المفتوحة للعودة مجدداً إلى مزارعهم. «لقد كانت معاملتهم أفضل من زمن حكم المشركين حتى أن شعوباً من قرى أخرى بدأت بالقدوم». ويؤكد الباحث أن هذا ليس بدعاية شوفينية كما يدعي بعض الباحثين المحدثين. ففي بعض المصادر التاريخية انتقدت الإدارة العثمانية في القرن الخامس عشر لعدم معاملة رعاياها غير المسلمين، وخاصة فيما يتعلق بقضايا الضرائب، بطريقة عادلة وبرأفة كما كانت تفعل

الإدارات العثمانية السابقة. وهذا الاهتمام بالاعتدال الضرائبي برز غالباً في ملاحظات الفقهاء العثمانيين.

وتذكر بعض المصادر أن سكان بعض المناطق لم يعودوا قادرين على تحمل عبء القوانين القديمة التي سنّها أق قويونلو أوزون حسن، ولذا فإن «بعض الضرائب الجائرة ألغيت وبعضها الآخر خُفض» في ظل الحكم العثماني الجديد. لقد أدرك العثمانيون أن الوضع الجيد لرعاياهم هو «عاملٌ في إطالة عمر الدولة واستمرار النظام في الامبراطورية». واعتمدوا اعتبارات برغماتية عديدة، فالعدالة واللين والتساهل النسبي يمكن أن تخفف من التوتر بين الحكام والرعايا، خاصة وأن الحكم العثماني كان لا يزال يانعاً وغير مستقر. أضف إلى ذلك أن الحروب المستمرة أدت إلى نزوح أعدادٍ كبيرة من سكان الريف، فكان من الطبيعي للدولة العثمانية في تطلعها نحو مستقبل سياسي جاد أن تعمل على أن يكون رعاياها من المنتجين ودافعي الضرائب. ومهما كان دور الاعتدال الضرائبي في جعل الحكم العثماني مقبولاً أو متسامحاً، فإن هذا الدور قد تعزز أيضاً بالأمان الذي يعم المناطق الواقعة تحت حكم مستقر، مهما كانت هويته.

إن انحطاط المصالح المباشرة للدولة البيزنطية في هذه المنطقة قد سهل ولا شك عملية التوسع العثماني. فنقص الدفاعات البيزنطية ساعد العثمانيين على التقدم دون لفت انتباه القوى الكبرى. ونتيجة لإهمال الدولة البيزنطية للسكان المسيحيين في هذه المنطقة أصبح من السهل على الجانب العثماني كسب من كانوا سابقاً رعايا للدولة البيزنطية. إلا أنه يجب عدم المبالغة بضعف الدفاعات البيزنطية، لأن ذلك ينقص من أهمية الوضع الاستراتيجي للإمارة العثمانية. فلقد عمل البيزنطيون في عهد ميخائيل بليولوغوس Micheal Palaeologus في سنوات 1280 ـ 1281، وأدرونيكوس الثاني الذي صرف ثلاث سنوات من 1290 إلى 1294، في تحصين حدود بيثينيا لصد الغزوات التركية، التي كان عليها أن تقطع النهر لغزو مستوطنات بيثينيا. ولقد تم أخيراً **إسقاط** هذه الدفاعات ولكن ليس عبر النهر. فالدفاعات البيزنطية **هناك كانت**

ناجحة. فالعثمانيون الذين كانوا يقيمون جنوباً، تحركوا على طول النهر من الجنوب، مما جعل القلاع البيزنطية عديمة الفائدة. التحرك العثماني الأول كان على طول النهر ثم امتد غرباً نحو بيثينيا وهذا ما حصل في السنوات الأولى بعد معركة بافوس. وعندما بدأ اسمهم في البروز خارج حدود منطقتهم اجتذبوا إليهم المحاربين الطامحين، ولم يدرك العثمانيون أن توسعهم هذا كان حاسماً إلا في مرحلة متأخرة. الدخول العثماني في الأراضي البيزنطية عانى بعض الركود بين سنوات 1307 ـ 1317؛ وعلى الرغم من كل إنجازاتهم في العقد الأول من القرن الرابع عشر، فإن إمارتهم لم تصل لمستوى إمارات آيدن ومنتشى. وبغض النظر عن المحاربين والدراويش والعلماء الذين اجتذبهم عثمان إلى صفوف جماعته النامية، فإن بعض الإمارات الأخرى كانت تتمتع بوضع أفضل. واستناداً للمعلومات المأخوذة من العمري، ومن حقائق سنة 1320، فإن هناك إمارات أخرى كان بإمكانها جمع قوات أكثر مما كان بإمكان البيت العثماني أن يجمع. ولكن بما أن وجود الإمارة العثمانية كان في تحد دائم للإمبراطورية البيزنطية فقد تمكن العثمانيون في بضعة عقود من البروز كقوة مواجهة أساسية لهذا التحدي. وفي تصوير الجغرافي العربي العمري لإمارات غرب الأناضول، نراه يبرز العثمانيين وحدهم كقوة متصارعة عسكرياً مع البيزنطيين. وعندما مر ابن بطوطة على إمارات المنطقة سنة 1330، وصف أورخان على أنه «أعظم أمراء التركمان سعة أرضٍ، وضخامة جيشٍ وثروة». إلا أن كل الميزات الاستراتيجية والفرص المادية ما كانت لتعني أي شيء لو لم يستغلها العثمانيون برؤية بعيدة المدى، وهذه الرؤية كانت تتحدد وتتبلور من خلال مسار الأحداث.

الخلافة

وفي منتصف 1320م كان للعثمانيين نظام إداري ـ عسكري معقد لإصدار نقود باسمهم، ولإعطاء مناصب للعبيد، ولإقامة الأوقاف، ولإصدار الوثائق المكتوبة (بالفارسية) ولامتلاك مدينة مهمة كبورصة. إلا أن أهم إنجاز لهم في هذه السنوات، كان وبحق في تخطي الإمارة العثمانية لاستحقاق موت عثمان

دون أية خسارة لوحدة الإمارة. ربما كانت هناك بعض الأصوات المعارضة وبعض الاعتراضات، إلا أن ما نعرفه هو أن أورخان خلف والده دون أن تمس مملكته؛ بالرغم من أن أورخان لم يكن الولد الذكر الوحيد لعثمان! فلماذا لم تقسم إمارة عثمان بين ورثته؟ لو اتبع العثمانيون التقليد التركي ـ المغولي، كما فعلت الإمارات الأخرى المحيطة بهم، لبقي أورخان الحاكم الأعلى على إخوته الآخرين، إلا أنه سيكون لهؤلاء الإخوة عمل ومناطق نفوذ؛ وهو التقليد الذي اتبعه الجانكيزخانيون وسلاجقة الأناضول، الذين مثلوا التقاليد السياسية للدولتين العظميين اللتين أخذت عنهما الإمارات الأخرى تقاليدها السياسية.

لم يتحد أورخان أحدٌ من إخوته في خلافته، كما أن إمارة عثمان لم تقسم. ولذا يبدو طبيعياً أن نبحث عن «سياسة عثمان إزاء الخلافة»، من خلال حالة واحدة (هي أورخان طبعاً)، على الرغم من كل الغموض المحيط بها. لقد عرفت بعض الإمارات الأخرى الخلافة الواحدة، ولكن الإمارات الانفصالية هي التي كانت سائدة بشكلٍ عام، بينما بقيت أراضي الإمارة العثمانية موحدة المرة تلو المرة، على الرغم من أنها لم تنظم إلا في عهد محمد الثاني الذي شرع قانون قتل الإخوة. وقد صدمت هذه الممارسات غير الاعتيادية المراقبين المعاصرين لها. ويرى معظم مؤرخي القرن الخامس عشر أن قتل الأخوة أصبح قاعدة متبعة بدءًا من عهد بايزيد الأول. أما خلافة عثمان فتميزت كما يرى أبز في أن عثمان نفسه، وكان لا يزال حياً، أعطى العرش إلى أورخان، حتى يتم قبول هذا الرجل الشاب في حياة أبيه. مما يعني أن عثمان كان ينوي عدم ترك أي مجال لتحدي خلافة ابنه على الأراضي والقبيلة العثمنلية. ربما كان أبز يتخيل مخططات عثمان، إلا أنه من الواضح أن مؤرخي القرن الخامس عشر قد وجدوا اختلافاً نوعياً في السلوك العثماني تجاه الخلافة وحاولوا تفسيره، ومعلومات أبز هذه جاءت مباشرة من يخشي فقيه، ابن الزعيم أورخان، والذي من المفترض أن يكون عارفاً بتفاصيل هذه المسألة.

وقد أدى محمد شلبي واجبه التاريخي في مناقشاته لرفض العثمانيين الدائم لفكرة المشاركة. ففي كل جيل، كانت هذه المعارضة لتقسيم المملكة تبرز نفسها؛ برزت مع مراد الأول (1362 ـ 1389) وبايزيد الأول (1389 ـ 1402) والاثنان قضيا على التحديات التي قام بها إخوتهم، أو أبناؤهم، ثم مع مراد الثاني (1421 ـ 51)، وأخيراً مع محمد الثاني (1451 ـ 81) الذي شرع قتل الإخوة كتتويج لمنطق المركزية، هادفاً القضاء نهائياً على عناصر التقسيم. وبالنظر إلى سياسة الخلافة التي اتبعها عثمان على المدى الطويل، يتبين أنه لم تظهر سلالات جديدة من عشيرة عثمان. وأثبت العثمانيون على المدى الطويل أنهم تلامذة أفضل للتاريخ من منافسيهم، ليس فقط في سياسة الخلافة، وإنما أيضاً في تعاطيهم مع التحديات الحقيقية الأخرى لسلطتهم المركزية.

التحديات للسلطة العثمانية: استراتيجيات سيادة المركزية

لم تكن الخلافة هي الاستراتيجية الوحيدة التي اتبعها العثمانيون للحفاظ على سلطتهم المركزية وعلى حدود ممتلكاتهم، إذ كان عليهم مواجهة مراكز النفوذ الأخرى التي كانت تنشأ في مملتكاتهم خلال الظروف التاريخية التي مروا بها.

ولا نعرف الكثير عن إمارة كارازي «Karasi» سوى أمر واحد مؤكد، وكانت له أهميته الخاصة بالنسبة للتاريخ العثماني. لقد كان لكارازي مجموعة من المحاربين الأكفاء الذين علّموا العثمانيين أشياء كثيرة من ناحية العبور نحو ثراس، والتي مثلت أرضاً لها الأولوية في عمليات الغزو. وعندما قضى أورخان على البيت الكارازي وضم ممتلكاتهم، تحول هؤلاء المحاربون إلى خدمته وقدموا له خبرة عسكرية هامة في نقل نشاطات الغزو إلى الضفة الأخرى من الدردنيل، والتي أصبحت بالأساس ممكنة بسبب دعوة كونتاكوزينوس «Kantakouzenos» الذي احتاج للمحاربين الأتراك لاستخدامهم ضد خصومه.

وبضمِّ هؤلاء المحاربين خاطر العثمانيون بتحدٍ جدي لسيادتهم بعمليات الغزو في ثراس، وتحولت إمكانيات التحدي إلى حقيقة في سنوات 1360 ـ 1370 بعد خسارة العثمانيين لغليبولو «Gelibolu». فبخسارة هذا الرابط الأساسي بين الضفتين (الأناضول وثراس) تمتع الغزاة في ثراس باستقلالية عن العثمانيين حتى ولو كانوا بالأساس تحت الحماية العثمانية. وهذا جزء من قواعد اللعبة العسكرية السائدة. وأشهر القادة المحاربين الراغبين بالاستقلال كان حاجي الباجي، وهو من محاربي الكارازي السابقين. وربما كان هو الفاتح الذي عرف باسم سيد علي سلطان. ويبدو أن الشخصية المركزية في الطريقة الكباشية قد قامت على محارب له الفضل في نقل نشاطات الغزو إلى ثراس. ومن الواضح من المصادر العثمانية أن حاجي الباجي كان له الفضل في الانتصار الساحق على القوات الصربية سنة 1371. وقد ذكرت هذه المصادر أيضاً أن حاجي الباجي قد قُتل من قبل قائد موالٍ لمراد الأول ابن أورخان. ومهما كان مدى صحة هذه الروايات التاريخية، فإنها تثبت أن التوجهات الانفصالية قد بلغت أوجها في السبعينات من القرن الرابع عشر، وأن العثمانيين كانوا يواجهون نوعاً من الأزمات التي أدت إلى ظهور إمارات انفصالية في الدول الأخرى في المنطقة وقد كان على رأس هذه الإمارات قيادات عسكرية ناجحة. وتمكن العثمانيون من مواجهة هذا التحدي، بالتعاون مع قيادات عسكرية أخرى وباتخاذ إجراءات صارمة وعنيفة، وما كان لهذه الإجراءات أن تنجح لو لم يطور العثمانيون جهاز حكمهم المعقد. وبالتأكيد لم يكن من باب المصادفة ابتداع العثمانيين للإنجاز الحقيقي لتكنولوجيا السلطة المركزية خلال أزمات 1370 أو ما بعدها. فبعد ملاحظاتهم لضعف الروابط بين المحاربين من جهة وبينهم وبين البيت العثماني من جهة أخرى، أصبح الأمير العثماني سلطاناً وابتدعت الدولة الناشئة جيشاً جديداً، هو الانكشارية، والمؤلف من شباب كانوا عبيداً حتى يكون ولاؤهم الوحيد للسلطان.

إن التعقيدات المؤسساتية لإمارة عثمان ظهرت مبكراً، وقبل وصول عائلة الجاندرلي التي سيكون لها دور هام في تعزيز السلطة المركزية العثمانية. فبدءًا

من الجاندرلي قره خليل سيطرت ثلاثة أجيال من هذه العائلة على الوظائف العليا في الإدارة ولعبت دوراً هاماً في بناء بنى معقدة للحكم دعمت التوجهات المركزية للدولة العثمانية، على الرغم من استياء الغزاة ومؤيديهم لهذه التوجهات. والمصادر التي تذكر هذا الامتعاض، تربط «بداية» كل الشرور والاضطرابات مع قدوم عائلة الجاندرلي وبايزيد الأول.

كما أن حياة الحضر، وما تحمله من اغتراب عن الطرق الرعوية وعن الرعاة أنفسهم كانت أيضاً وجهاً من وجوه هذا التحول. إن الفهم الأفضل للدولة العثمانية يقتضي النظر إليها كتحالف لقوى متعددة، بعضهم تخلى في النهاية عن هذه المؤسسة أو أُخضع، أو هُمّش. وبتعبير أدق فإن تاريخ الدولة العثمانية الذي هو تاريخ تحالفات وصراعات متغيرة بين قوى اجتماعية مختلفة، كانت بدورها تخضع لتحوّلات سريعة تستدعي مناقشة وضعها ضمن الدولة.

وإذا كانت الحركة والمرونة هي من خصائص التخوم في أناضول العصور الوسطى، فإن النجاح العثماني كان في استخدام هذه الحركة لتحقيق غايات العثمانيين، بعد ترويضها وإعادة تشكيلها لتتناسب مع رؤيتهم القائمة على الاستقرار والمركزية. فنظام مثل نظام الدفشرمة، حيث كان يتم جمع الصبيان من عائلات الفلاحين غير المسلمين، «فيحولون إلى عثمانيين» ثم يرفَّعون إلى أعلى مراتب الحكم، لا يمكن رؤيته إلا من خلال دولة ولدت في ظروف التخوم.

أما القوى الاجتماعية التي تضررت من هذه السياسة المركزية فكان على رأسها قادة الحركات الدينية الصوفية، الذين تجسدوا في أشخاص البابات، وأشهرهم على الإطلاق حاجي بكتاش الذي أُرسل من خراسان إلى الأناضول في شكل حمامة ثم أصبح بابا البابائية. وقد اعتمد العثمانيون كثيراً على خدمات هؤلاء البابات في مراحل بناء دولتهم الأولى. وفي النهاية فضّل العثمانيون الحركات الصوفية المدنية والأكثر علماً وحداثة، خصوصاً بعد تحول بعض حلفائهم القدامى من الدراويش إلى أعداء.

وقد تمكن الصفويون من كسب أنصار لهم ليس فقط من بين القبائل وإنما أيضاً من بين مجموعات الدراويش التي كانت مرتبطة بالعثمانيين، والذين أصبحوا مستعدين لتبني المذهب الشيعي. أما جماعات الآخيين القريبة من مفهوم النقابات والمؤسسات شبه الصوفية والمكونة من رجال من المناطق المدنية، فقد خسرت استقلاليتها التي تمتعت بها في السابق وتحولت إلى نقابات مسيطر عليها من قبل الحكومة.

مجموعة أخرى، هي محاربو التخوم وعلى رأسهم أمراء الأوك عانت من القوة المركزية في الإمارة العثمانية النامية، ومن التبني العثماني في النهاية للمفهوم الإمبراطوري في الإدارة والحياة الثقافية. وبسبب ندرة المصادر فمن الصعب أن نعرف بالتحديد البدايات الأولى للصدام بين البيت العثماني وحلفائه ومحاربيه. فمع نمو سلطة وإمارة عثمان وأورخان واكتسابها لخصائص الإدارة الحضرية، كان هناك بعض الغزاة، وغيرهم ضمن هذه الإمارة، الذين شعروا بأنهم تُركوا جانباً. وقد برزت معارضة المحاربين المجاورين من خلال مواجهتهم للمنافسة العثمانية. أما التوتر النظامي والعميق فنشأ بين الغزاة الذين اعتادوا أن يروا أنفسهم كشركاء لأمراء البيت العثماني. واستياؤهم يعود على الأقل إلى الربع الأخير من القرن الرابع عشر، عندما لم يقم العثمانيون فقط بضم الأراضي التي فتحها الغزاة أنفسهم وبشكل مستقل في مناطق ثراس، وإنما فرضوا أيضاً ضريبة على غنيمتهم الأساسية: العبيد. وعلى الرغم من أن العثمانيين قد تمكنوا من تخطي أزمة سنة 1370، فإنها استمرت كتراث. ونحن نعلم اليوم أن الشيخ بدر الدين، القائد «المبتدع» لأعظم حركة ثورية (على الرغم من فشلها) في التاريخ العثماني (1416)، كان ابن غاز. وتؤكد التقارير أن والده كان مرافقاً للحاجي الباجي. وكان الشيخ بدر الدين ضد التحول القسري أو قمع المسيحيين وكانت عنده نظرة طوباوية لجمع ديانات مختلفة. وبكل الأحوال فقد تمكن هو وقادته العسكريين من جمع آلاف المسلمين والمسيحيين الراغبين في القتال ضد الجيش العثماني.

المعارضة للقوة المركزية العثمانية التحمت مع توجهات عرفتها الدولة

العثمانية بأنها «بدعية»، كما أنها انتشرت ضمن أوساط محاربي التخوم والدراويش والبدو. صحيح أنه لم يتحول كل الغزاة والدراويش إلى متمردين أو هراطقة، كما لم تؤيد كل القبائل القضية الصفوية، لكن هذه القضية عرضت نفسها كخيار ثقافي وديني وسياسي منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر. ولا يمكننا بالطبع أن نتوقع لهذه الفئات الاجتماعية المختلفة أن تتصرف كمجموعة واحدة.

الكثيرون من الغزاة «المعتدلين» أو «المتأقلمين» استمروا في عملياتهم في البلقان في خدمة الدولة العثمانية، ولكن بشكل مختلف بالطبع عما كانت عليه الحال إبّان استقلاليتهم في أوائل الدولة العثمانية، بينما عارض الآخرون الدولة العثمانية. المهم أن الغزاة كمجموعة اجتماعية مميزة لها طرق حياتها الخاصة، تحالفاتها وصراعاتها، كان يمكن ملاحظة مواقفها بسرعة. لماذا وقف بعض الغزاة مع الدولة العثمانية؟ لأن دولة مركزية يمكن أن تؤمن لهم الأمان نسبياً. كما من الممكن أيضاً أن تجعل الغزوات اللاحقة أكثر ربحاً. ولذا فمن الطبيعي أن يكون قبول مستوى معين من الخضوع خياراً مقبولاً بالنسبة لبعض المحاربين.

وإذا بدأنا من المفهوم الذي جمع عناصر مختلفة من الشرائح الاجتماعية والثقافية للأوكات (Ucat) الباحثين عن الغنائم، الدراويش، وزعماء القبائل البدوية، إضافة إلى المسيحيين المتحولين حديثاً إلى الإسلام، نرى أن كل هذه المجموعات كانت ترى وتعطي شرعية لنضالها في ظل قضية عليا. ولذا فإن روحية الغزو أخذت تنحو تدريجياً نحو مزيد من التفسيرات «المحافظة» متأثرة بالاتجاهات الجديدة للإدارة السُنية المستقرة. وفي نهاية القرن الخامس عشر، كان ورثة تقاليد الغزو الأولى قد ابتعدوا عن الاتجاه العثماني السائد. وهكذا فإن أبز والمؤرخين الآخرين تبنوا الاتجاه الأصلي لاستمرار تقاليد الغزو الأساسية، بينما أعطى بيروقراطيو البلاط مفهومهم «الغريب» للغزو، ففشلوا بذلك في كسب ورثة التقاليد الأولى. ويجب التنبيه هنا إلى أن الصفويين كسبوا ولاء القبائل والدراويش ليس فقط بالدعاية الدينية، وإنما أيضاً بتبنيهم

مفهوم «الغزو الحقيقي».

أما في البلقان فبعد إخماد ثورة بدر الدين، انحصر الوجود التركي ـ الإسلامي بالوجود العثماني. واستمر العثمانيون في توسعاتهم، وكان لسياسة إقامة المستعمرات والاستقرار التي اتبعها العثمانيون بعد انتصاراتهم العسكرية أثر مميز في عملية التوسع. وقد ساعدت طبيعة السلطة السياسية المجزأة في البلقان ومشكلة وجود كنيستين على هذا التوسع أيضاً. وقد ركز الكثير من المؤرخين أيضاً على خفض العثمانيين للأعباء المالية المفروضة على فلاحي البلقان الذين عانوا ولوقت طويل من جشع سادتهم. والأهم من ذلك كانت الطبيعة المنتظمة والمستقرة للإدارة العثمانية التي جاءت بعد فترة ضياع وفوضى؛ إضافةً إلى تأثير الانتصارات «الساحقة» (سيب سنديغي Sip Sindigi 1371، كوسوفو 1389، فارنا 1444، وكوسوفو الثانية 1448) التي كرست نهائياً وجود الإدارة العثمانية في البلقان.

ركز إينالجك في دراسته للأطراف السياسية العثمانية في سنوات 1430 و1440 على مجموعة من أمراء الأوك الذين شكلوا في ذلك الوقت الأعضاء القياديين لـ «حزب الحرب» الذي وقف معارضاً لعائلة الجاندرلي الذين كانوا من الداعين للتعاون مع حكومة الامبراطورية البيزنطية. وستكون هذه هي المرة الأخيرة التي يلعب فيها وجهاء محاربي التخوم دوراً استراتيجياً هاماً كان له أثره في التوجه العام للسياسة العثمانية. وعلى الرغم من أن اعتقال مراد الثاني والتتويج الأول لمحمد الثاني سنة 1444، أظهرا وكأن أمراء الأوك لهم اليد الطولى في السياسة العثمانية، إلا أن انقلاباً مضاداً سيقوم به جيش العبيد (بتشجيع من عائلة الجاندرلي) بعد أقل من سنتين. ورغم عودة محمد الثاني سنة 1451 واتباعه لسياسة أكثر عنفاً نحو البيزنطيين وفتح اسطنبول، فإن تحقق حلم الغزاة لم يؤد إلى تعزيز دور أمراء التخوم في النظام السياسي العثماني بسبب نضج التوجهات المركزية للدولة العثمانية في ذلك الوقت. وعلى الرغم من إعدام جاندرلي خليل من قبل الفاتح بعد الفتح مباشرة، فإن بعض زعماء «حزب الحرب» من أمراء الأوك قد قتلوا أيضاً بعد فترة لم تكن ببعيدة.

وعلى الرغم من أن القرن الذي تلا فتح القسطنطينية ظهر وكأنه عهد مجد الغزاة في البلقان كما نقرأ في (غازيات نامه) التي سجلت أعمال الغزاة، إلا أنه كان مجداً عابراً وتمتع الغزاة به على حساب خضوعهم المتزايد للدولة المركزية. وفي سنة 1457 عندما أمر محمد الثاني بالهجوم الأخير واحتلال قلعة بلغراد، احتج محاربو الحدود في البلقان قائلين، كما يروي أبز، «إذا فتحت بلغراد، فما علينا سوى فلاحة الأرض». لقد عرف هؤلاء الغزاة تماماً إلى أين ستؤدي بهم سياسة الدولة المركزية. وعلى الرغم من بعض المكاسب التي حصلوا عليها من غنائم العقود السابقة، إلا أنهم بدأوا بالتحول تدريجياً إلى مالكي إقطاعات في المناطق، أي مزارعين ولو بشكل غير مباشر. فخسروا بذلك وضعية أسلافهم كمحاربي تخوم ناشطين ومستقلين. وكما حدث مع البدو، فإن نشاطات محاربي التخوم قد نظمت وضبطت، ورُبط المحاربون بقطع أرض معينة انسجاماً مع المنطق الإداري للنظام العثماني الكلاسيكي.

وفي كتاب «سلجوق نامه» الذي جُمع للأمير جم بهدف ردم الهواة بين العائلة العثمانية، أو بين هذا الأمير بشكلٍ خاص، وحلقات الغزاة ـ أن غزاة الروم قد أصدروا نقوداً وجعلوا خطبة الجمعة باسم سلجوق لمدة أربع سنوات كتعبير عن سيادتهم، وكانعكاس لرفضهم قبول السيادة العثمانية. أما بالنسبة لسلجوك نفسه، فقد قيل إنه لم يرض عن هذا العمل، وكان قابلاً بالحق الأعلى للبيت العثماني في هذه المسائل، وأنه دعا كل الغزاة إلى الالتفاف حول عائلة عثمان. ويتبين من «سلجوق نامه» التي أُلفت سنة 1474، أن الغزاة كانوا يشعرون بأنهم لم يعطوا مردوداً عادلاً في مقابل خدماتهم. ونقول مجدداً إن فتح القسطنطينية وجعلها عاصمة شكل الحسم النهائي في هذه المسألة؛ لأن هذا الفتح كان يمثل قمة الرؤية السياسية التي همّشت الغزاة. ولكن وقبل الفتح بكثير، كما تقول الروايات التي كتبت بعد أن خسرت أدرنة دورها كعاصمة، زار سلجوق هذه المنطقة وحذر الحكام المسلمين من المستقبل قائلاً: «أي شخص يرغب في فتح أرض الروم، يجب أن يكون مركزه في أدرنة. وأي شخص يرغب في تدمير المشركين والأعداء، يجب أن يبقى في

أدرنة لأنها قلب الغزاة..». وقد تنبأ هذا الشيخ بأن سلطاناً اسمه محمد سيظهر وسيفتح القسطنطينية؛ ولكن هذه المدينة ستدمر في النهاية بسبب «الفساد، والرذيلة، واللواط، والطغيان». ولن يكون هذا حال أدرنة، «إلا إذا تخلى المسلمون عن الغزو». وقد وعد الأمير جم بنقل عاصمته إلى أدرنة، «دار الغزاة»، إذا أصبح سلطاناً، كما ورد في «سلجوق نامه». أما بالنسبة للغزاة فإن هذا كان وعداً بتغيير السياسة السائدة وبإعادة شرفهم وسلطتهم. والمعارضة للأمير جم في صراعه الأخير (1481 ـ 1482) للحصول على التاج جاءت من جيش العبيد «Kapikulu» الذي فضّل بايزيد وتوجه؛ ومنذ تلك الفترة كرّست سيادة الإدارة المبنية على العبيد، ولم يلعب بعدها الغزاة أي دور هام في توجيه سياسة الدولة العثمانية. وسيكون من الخطأ الحديث عن محاربي التخوم كقوة سياسية بعد القرن السادس عشر.

وتحويل العاصمة بعيداً عن اسطنبول، استمرت في حمل معانيها الرمزية في التاريخ العثماني السياسي حتى الأيام الأخيرة للإمبراطورية. فعندما أراد عثمان الثاني (1618 ـ 1622) إضعاف سلطة جيش العبيد، هدد بتحويل العاصمة إلى مدينة أخرى وقد سرت شائعات بأنها قد تكون بورصه أو أدرنة أو الشام. وفي سنة 1703 قام الانكشارية مع علماء أسطنبول وممثلي نقاباتها، بمسيرة ثورية إلى أدرنة، حيث كان السلطان مصطفى الثاني (1695 ـ 1703) مقيماً لسنوات عديدة وفي نيته جعلها عاصمة الدولة العثمانية. وبعد فرض العزل على مصطفى الثاني، فإن السلطان الجديد أحمد الثالث (1703 ـ 1730) أُخذ إلى اسطنبول بعد أن وعد بعدم تركها مجدداً. وفي سنة 1810، هدد محمود الثاني (1808 ـ 1838) الانكشارية بأنه سيأخذ عائلته ويرحل عن اسطنبول إذ لم يمتثلوا للقوانين. وأخيراً فإن اختيار أنقرة كعاصمة للجمهورية التركية لا يحتاج إلى أي تفسير كرمز للانقطاع النهائي عن النظام السياسي العثماني.

ومهما كانت عظمة الدور الذي لعبه الغزاة في ظهور الدولة العثمانية، فإنهم لا يمثلون أكثر من جزء معين من مجتمع التخوم في أناضول العصور

الوسطى، مع عاداتهم الخاصة ومصالحهم وتحالفاتهم، ضمن ائتلاف حظي بنجاح كبير أدى في النهاية إلى ابتلاع بعض أعضائه. لقد مثل الغزاة فئة اجتماعية صلبة، تُركت في النهاية خارج الطبقة الحاكمة بسبب ظهور الإمارة المركزية بقيادة البيت العثماني، الذي كان يوماً مثلهم واحداً من أمراء الغزاة. لقد أصبحت عمليات الغزو تخضع لقرارات الباب العالي. فالغزوة لم تعد مسألة على مستوى المحلة أو المنطقة وإنما ارتقت إلى مصاف المسائل العالمية في عالم السياسة الحقيقية. ولذا فعندما وقّع سليمان القانوني معاهدة سلام مع آل هابسبورغ وكان في نيته الحفاظ عليها أمر قائد الغزاة ميهال أوغلو بالامتناع عن القيام بأية غزوة في أراضيهم.